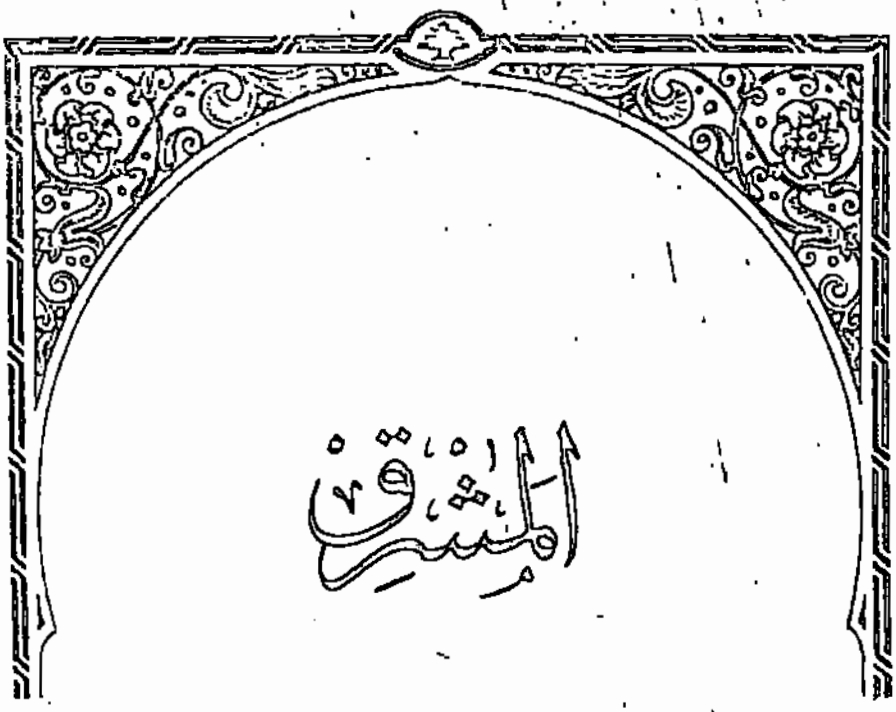

السنة الخمسون كانون الثاني – شباط ١٩٥٦

تاريخ الدول السرياني

تأليف أبي الفرج الملطيّ (تابع)

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

ثم ولّى ايلجيكتاوي بلاد الروم والكرج والموصل وسورية وقيليقية. وارسل يلواج الامير الكبير الى بلاد الختا . والامير سعود بك الى العجم . وولّى الامير ارغون خراسان وهمذان واذربيجان وشروان ولور وكرمان وطرف الهند . وقلد سلطنة بلد الروم السلطان ركن الدين وردّ الملكُ هيتوم والكرج والفرنج مكرّمين . وخاطب سفير الخليفة مهدّدًا تهديدًا قاسيًا . وطرد رسل الاسمعيليّين محتقرين مهانين . واتخذ قداق المسيحيّ حاجبه مدبّرًا ومدبّرًا .

وكان كيوك مسيحيًا قويًا ارتفع شأن المسيحيّين في عهده وحفل معسكره بالاساقفة والكهنة والرهبان . وعرفت يومئذ امرأة عربية اسمها فاطمة خاتون احرزت القربى لدى تورکينا خاتون والدة كيوك خان واطّلعت على غوامض

اسرارها . ولسوء الحظ رفع بعضهم الدعوى عليها لدى كيوك خان بانها ساحرة تتحامل عليك وعلى اخوتك فبعث وطلبها من امه . فرفضت طلبه فأحضرها قسراً وقتلها . وحدث بسبب ذلك خلاف بينه وبين امه وما عتم ان ماتت الام كذلك . وقد عرّوا فاطمة وتركوهـا ايّاماً دون اكل وشرب وظلّوا يصفعونها حتى أقرّت بانها ساحرة . فخاطوا منافذها الظاهرة والخفيّة وجعلوها في لبّاد واغرقوها في الماء ، وفتكوا بجميع أنسبائهـا الذين كانوا يجتمعون عندها . ولولا ذلك لاستولت بعد قليل على كلّ (٤٨٢) المملكة بسبب استئناس توركينا الملكة بها .

وفي تلك الغضون نهض كيوك خان يريد الذهاب الى بلاد المغرب ووصل الى مدينة بعيدة سبعة ايّام عن بيت باليغ وهناك ادركته المنون .

وعلى اثر وفاة غياث الدين رام بعض الزعماء ان يخلفه ركن الدين ثاني ابنائه . فشعر الوزير شمس الدين اصفهاني وقبض عليهم جميعاً وفتك بهم . وتكبّر وتجبّر واتخذ ام السلطان عزّ الدين زوجةً له وولدت له ابناً . واستاء الجميع من هذا التطاول . على ان شمس الدين هيّأ ذهباً كثيراً واقمشة ملكيّة وخيولا وارسلها مع الفتى ركن الدين بثابة وديعة الى التتر كما ذكرنا تأييداً للصلح . ولمّا زار الفتى كيوك خان انتهز الفرصة بها . الدين الترجمان ورفع الشكوى على الوزير لكونه قتل الزعماء واتخذ امرأة السلطان المتوفي زوجةً وأمر باقامة سلطان جديد دون امر الخان . فاصدر الخان امره بعزل عزّ الدين وخلافة ركن الدين الذي زاره . وان يتولّى بها . الدين الترجمان وزارته ويُعزل شمس الدين .

ولمّا عوّل الوفد على الرجوع تخوّف الوزير ورجّه رشيد الدين سوباشي ملطية في ذهب جزيل وجواهر ثمينة الى الخان ليأتيه بالخبر الصحيح . ولمّا وصل الى ارزنجان بلغه ان ركن الدين وبها . الدين الترجمان يصلان قريباً فملكه الرعب وسار بالهدايا التي معه الى قلعة قماح وانهزم هو مع نفر الى حلب . وما عتم ان وصل بها . الدين في الفين من المغول وخُطب للسلطان ركن الدين في ارزنجان وفي سبسطية وقيسارية وملطية وحصن زياد وآمد . ونُصب حكّام جدُدٌ وولاةٌ في كلّ مكان وعزلوا اصحاب عزّ الدين .

ثم وجّه الترجمان سفيراً (٤٨٣) الى حلب فقبض على رشيد الدين الذي

نهزم وسقهُ الى قلعة هابيج وزجه فيها . وهي قلعة لم يُسجن فيها أحد ويبرح من الموت سوى هذا الذي أشفق عليه وأطلق . ففي سور تلك القلعة المبنية على صخر شاهق باب عليه لوح صغير لا يتيسّر لاحد ان يقف عليه او يجلس فوقه . وكان اذا صدر حُكم الموت على زعيم مشهور لا يريدون ان يقتلوه علانيةً يبعثوه الى تلك القلعة واقاموه فوق ذلك اللوح واغلقوا الباب في وجهه . فيظلّ هناك واقفاً يوماً او يومين حتى يغلبه النعاس فيسقط ويموت . وقد تمت تلك الحوادث كلّها مع ذهاب الوفد الى التتر ورجوعه في مدّة ثلاث سنوات .

وفي السنة ١٥٦٠ لليونان (١٢٤٩م) وصل بهاء الدين والتتر فخاف الوزير شمس الدين الاصفهانيّ وحاول ان يأخذ السلطان عزّ الدين ويعصي في احدى القلاع التي بالبحر . فلمّا شعر بذلك شيخ من اقطاب السلطان علاء الدين اسمه جلال الدين القراطي وكان رجلاً صالحاً رحيماً زاهداً في اكل اللحم وشرب الخمر ومخالطة النساء : ارسل فقبض عليه في بيته واعتقله واخبر بهاء الدين حالاً . وهذا بدوره ارسل التتر فجعلوا يتكلون به حتى اعلموهم بذخائر طائلة وبعد هذا اجهزوا عليه . وكان هذا الاصفهانيّ عالماً ماهراً جدًّا وعندما عرف انهم مزمعون ان يفتكوا به جعل يندب نفسه بعبارات فارسيّة بليغة مؤثرة مفرغة في قالب جذل . وعلى اثر قتله تولّى جلال الدين وزارة السلطان عزّ الدين ووُزّعت البلاد على الاخوين فاصبحت قونية واقسرة وانقرة (٤٨٤) وانطاليه اعني بلاد المغرب لعزّ الدين والمدن الشرقية لركن الدين .

على ان اصحاب ركن الدين لم يكفّوا عن الخصام اذ كانوا يرومون ان يُسمّى هو وحده السلطان دون عزّ الدين فاحتال التركمانيّ وارسل يقول لهم : ان ركن الدين هو السلطان الكبير طبقاً لرغبتكم ووفقاً لأمر الخان الذي معكم فانهضوا واتوا به الى أقسرة ويأتي كذلك عزّ الدين فيرضى بما يبديه له اخوه . فامتثلوا المشورة واقبلوا جميعاً . وتوجّه كذلك عزّ الدين من قونية . وعند ذلك كمن جنود التتر في جانب آخر واجهزوا على اصحاب ركن الدين وقبضوا على بهاء الدين اتابك ثم اخذ عزّ الدين اخاه ركن الدين الى قونية معه دون ان يؤذيه . وتولّى الاخوة الثلاثة عرش المملكة وضُربت سكّة الدراهم باسماء ثلاثتهم .

وفي السنة ١٥٦١ لليونان (١٢٥٠ م) خرج ملك فرنسا (لويس التاسع) ملك الفرنج في جموع عظيمة من فرسان ورجّالة وجنود ابطال وابحروا في مراكب وسفن ضخمة مشحونة ذهباً وفضّة فوق الحدّ وأهبة وذخيرة وافرة . وارتجت الارض بخبرهم وذاع انهم يقصدون مصر . اما الملك الصالح ابن الكامل صاحبها — وكان قد تولّى حمص وفلسطين على اثر وفاة أخيه العادل الصغير وحارب الملك الاشرف المتسلسل من اسد الدين شيركوه عمّ صلاح الدين الكبير ثم تولّى تل باشر — فهذا الملك الصالح لمّا بلغه خبر الفرنج ترك (٤٨٥) حمص وبادر الى مصر وحلّ في المنصوريّة المكتظّة بالأشجار واوقع صيحة في العرب فاجتمع اليه الجماهير من الاسكندريّة ومن قوس واسوان . اما الدمياطيّون فلما رأوا الفرنج محدقين بهم ملكهم الرعب فافرغوا المدينة من كلّ ما بها قبل ان يضايقهم احد او يحاربهم وذهبوا باهاليهم واموالهم جميعها الى مصر . اما زعماء دمياط فقد سألهم الملك الصالح هل ضايقكم الفرنج في القتال ؟ قالوا كلّا بل خفنا ان يحدث لنا ما حدث في عكّة لغيرنا اذ قتلهم الفرنج ولم يكترث لهم احد . فسخط الصالح عليهم وأمر بصلبهم وهم ٦٤ اميرًا على ٣٢ صليباً زوجاً زوجاً كما هم بثيابهم ومناطقهم وخفافهم . وما عتم ان مات هو كذلك بسبب داء عرض له في فخذه فقطعوا الفخذ وهو حيّ . وارسل زعماء مصر في استدعاء الملك المعظّم ابن الصالح من حصن كيفا وملّكوه عليهم . وكان حاجبه فخر الدين عثمان ابن شيخ الشيوخ الوزير الاكبر .

اما الفرنج فدنوا من سور دمياط ولم يسمعوا صوت حرّاس قطعاً ولم يشاهدوا احداً في الابراج فدهشوا وارسلوا فريقاً الى الميناء فلم يشاهدوا مخاوتاً فعرفوا انهم قد انهزموا ودخلوا المدينة يوم الجمعة مطمئنين مسرورين ولم يشاهدوا فيها من يبول في حائط . وجعلت السفن تنقل لهم المؤنة من البحر . غير ان عقلهم المعوجّ لم يَدَعهم يصطبرون ليختبروا عادة البلد ومنافذ الانهار والطرق بل سارعوا وعبروا غديرًا في النيل وساروا نحو مصر بعيدين عن الماء ووصلوا الى مكان قحل . وسار وراءهم بعض (٤٨٦) جنود العرب واحاطوهم فاصبح الفرنج بينهم وبين الماء يعذّبهم الجوع والعطش ويعذّب خيلهم . عند ذلك تشجّع العرب وضربوهم ضربةً هائلة جدًّا وفتكوا باغلبهم واعتقلوا الملك واقطابه

ومضوا بهم الى المعظم فحسنهم عنده . واشار عليه بعليك لصغار اقرانه قائلين : ان قتلت هذا الملك الفرنجيّ فلن تنجو كلّ حياتك من محاربتهم لان ملوكهم كثيرون واشدّاء . فالرأي ان تستحلفهم بانه منذ الآن الى مائة وعشرين سنة لا ينازل العرب لا هو ولا اخوته ولا ابناؤهم ولا حفدتهم وأطلقه ليذهب ويشكر لك فضلك عند ابناء دينه . هكذا استرح وارتع في الطمأنينة ولا تبدّد ما خلّفه آباؤك من الكنوز في سبيل الجنود . فاصغى المعظم الى مشورتهم واستحضر ملك فرنسا ليلاً اليه واستحلفه كما رأى واجزل له العطاء وسرّحه .

قيل انه لمّا كان ملك فرنسا المشار اليه معتقلاً ورده النبأ بان الملكة امرأته ولدت له ابناً في دمياط . فسمع المعظّم وسيّر اليه عشرة آلاف دينار ذهباً ومهدًا للطفل ذهبياً وحللاً ملكيّة .

امّا العبيد شيوخ والد المعظّم فلما شعروا باطلاقه ملك فرنسا ثار ثائرهم ووجّهوا السفن في البحر ليقبضوا عليه . ولكنهم لم يدركوه فاستلّوا السيوف وبادروا اليه فهرب منهم وصعد الى برج من خشب كان هناك فاضرموا فيه النار فلما وصلت رمى نفسه في البحر واختنق وضاعت جثته .

امّا ملك فرنسا فسار الى دمياط واخذ أهله وتوجّه الى عكّة واقام بها زماناً وبنى مدينة قيساريّة وغيرها من المدن وعاد الى وطنه .

وبعدما قُتل المعظّم (٤٨٧) صاحب مصر خلفه عزّ الدين التركمانيّ احد عبيد ابيه وتزوّج شجرة الدرّ الأمة التركيّة زوجة مولاه . وبعد زمان سار يوماً الى الحمّام ليغتسل فارسلت عبيدها الصغار فقتلوه لانها سبقت فعرفت انه يريد اهلاكها . وخلفه في مصر توتوز عبدهُ التركيّ ودُعي الملك المظفّر . وهذا قتل شجرة الدرّ والقى جثتها للكلاب انتقاماً لمولاه ، الّا ان الحقيقة هي انه خاف ان تقتله فسبق وأهلكها . ولقد كانت مشهورة بمتازة بجمالها الطبيعيّ وسياستها الرشيدة . وشعر يومئذٍ الملك الناصر صاحب حلب بان العبيد تولّوا مصر وجعلوا يقتلون بعضهم بعضاً كيفما كان فحشد جنوده واقبل الى دمشق وتولّى أمرها مطمئناً دون قتال .

جلوس مونككا خان على تخت المملكة المغوليّة

لمّا غادر باتو بن توشي بن جنكزخان معسكره في سقسين والبلغار وسار الى زيارة كيوك خان ووصل الى الاقاق قرب مدينة كيالج بلغه خبر موته . فمكث هناك وبعث الوفود الى جميع ابناء الملوك واستدعاهم اليه . فالذين تعذّر عليهم الذهاب كتبوا اليه يقرّرون الخلافة لباتو كبيرهم ويؤكدون موافقتهم له في كلّ امر . وكان ابناء كيوك خان في اوّل الامر واغول غالتميش خاتون امّهم الملكة قد زاروا باتو واقاموا عنده يومين فقط وارتحلوا وتركوا تيمور نوين وقالوا له : متى اجتمع ابناء الملوك الكبار والصغار فنحن نوافق على ما يتفقون عليه . ولما اكتمل جمعهم كلّفوا باتو ان يتولّى امر الانتخاب فان شاء فيكون هو الخان والّا فلينتخب من شاء وهم راضون خاضعون له (٤٨٨) . فقال باتو : لستُ أرى من هو كفوء بالنهوض بهذه المملكة العظيمة نهوضاً حسناً الّا مونككا . فوافقوه كلهم على ذلك وقالوا : يستحقّ ويستاهل . وقد أبدى اعتذاره كالرجل الرزين العاقل . غير انهم أجلسوه قسراً على سرير المملكة وخدّمه باتو مع جميع ابناء الملوك جاثين على ركبهم وناوله الكاس كالعادة وسقاه . وتقلّد المملكة في ٩ ربيع الآخر ٦٤٩ للعرب (١٢٥١ م) . وجعلت الملكة المؤمنة الحكيمة سرقوناني باجي والدة مونككا خان تستأنس بالاقطاب والزعماء وتقدّم لهم الهدايا السنيّة والتحف وتستميل الخوارج بالوعود الطيّبة .

واذ كانوا ينتظرون قدوم ابناء كيوك خان وامّهم اغول غالتميش وصل رجلٌ ممن يربّون السباع لتسلية ابناء الملوك وقال : اني لما فقدتُ احد السباع طاردتهُ ثلاثة ايام حتى بلغتُ بيوت ابناء كيوك خان القادمين الى هنا وشاهدتُ عجلة محطمة وصبيًّا قريباً منها يرنّمها فاستدعاني لاساعده . ولمّا دنوتُ وقع بصري على اسلحة مستورة ضمن العَجلة فسألت الغلام عنها فقال لي متعجباً كيف وانت منا تجهل هذا ؟ ان كل عجلاتنا هي مثل هذه . عند ذلك تركته وأقبلتُ لاخبركم فانتم تعرفون ما يجب . فامر مونككا خان ان يمضي منكسار القائد في القفي فارس ويلاقوا ابناء كيوك خان وقال لهم : يجب ان تحضروا انتم

مع القليلين الى مونكـكا خان وتزوروه ثم يأتي بعـدكم جنودكم . فلم يَرَوا الّا التسليم دون مراجعة . ولمّا وصلوا ومكثوا ثلاثـة ايام ياكلون ويشربون ويستريحون أعلمهم مونكـكا خـان بالخبر فخجلوا ولم يتمكنوا من الاعتذار قطعاً . عند ذلك أصدر الامر بقتل جميع الزعماء الذين ثبتت عليهم الجريمـة (١٨٩) بدءا من ايلكيختاي نوين الذي كان كيوك قد ولّاه بلاد المغرب . وألقى جميع الباقين على الارض . ثم ارسل فـاحضر كذلك نوين في العَجلة واستنطقه فأقرّ بذنبه فقتله شرّ قتلة . وقتل كذلك امرأة كيوك خان وعفـا عن ابنائها احتراماً للسلالة الملكية وعيّن لكل منهم مكاناً خصوصيًا وخدّاماً قليلين . وهكذا استتبّت له المملكة . وأقطع اخاه قبلاي بلاد الصين اعني الحطا . واخاه هولاكو بلاد المغرب . وترك لديـه اريك بوكا الصغير . ووضع شريعةً لبلاد الحطا بان يؤدّي كلّ غنيّ في السنة خمسة عشر دينارًا ذهباً جزية والفقير دينارًا واحدًا . ولبلاد العجم ان يؤدي الغني عشرة دنانير والفقير دينارًا واحدًا ولبلاد العجم ان يؤدّي الغني عشرة دنانير والفقير دينارًا واحدًا . وامر كذلك ان تؤخذ دابّة واحدة ممن عنده مائة دابّة . ويعفى من ليس عنـده اكثر من مائة دابة . واطلق الاسرى والمسجونين . وأمر ان يعفى الاحبار والكهنة والشمامسة والرهبان وعلماء المسلمين من الضرائب . ولم يستثنِ من ذلك الكرَم الّا اليهود لا غير . وقد قال فيهم احـد الشعراء : لا تصيب لك ايّها اليهودي في هذا الإنعام . انما نصيبك الاحتقار ايّها التاعس !

وفي هذه السنة ١٥٦٢ لليونان (١٢٥١ م) حصل شقاق ما بين المماليـك الاتراك في مصر ووجّه بعضهم الى الملـك الناصر صاحب دمشق يحرّضونه ليذهب ويتولّاها . فحشد جيوشاً كثيفـة وسار الى غزّة يريد مصر . ولمّا عرف الاتراك المخالفون له حشدوا جيوشهم واطلقوا اغلب الفرنج المعتقلين لديهم واقبلوا جميعاً راكبين ولاقوه (١٩٠) بجانب غزّة وكسروه شرّ كسرة . وأفلت مع القليلين وانهزم عائدًا الى دمشق .

وفي كانون الثاني من تلك السنة توفّيت الملكة المؤمنة ايزابيل ابنة الملك لاون الكبير قرينة هيتوم بن قسطنطين ووالدة لاون الثاني الصغير ملك قيليقية . وكانت ممتازة بسخائها وفضلها وتواضعها . وكانت تتعهّد الكنائس حافيةً ولا

تكفّ عن البكاء مدّة الصلاة . اراحها الله تعالى مع سائر السماء القدّيسات .

وفي القابل اعني عام ١٥٦٣ لليونان (١٢٥٢) توجه هيتوم ملك الارمن الى خدمة مونككا خان الكبير . وتناول الاسرار الخلاصيّة يوم خميس الفصح ورحل يوم جمعة الصلبوت . وبسبب تخوّفه من ان يغدر به زعماء بلاد الروم أذاع انه يرسل اولاً سفيراً يأتيه بالأمر ثم يسافر . وكتب كذلك رسائل الى صاحب بلاد الروم في الصدد عينه . وخرج متنكّراً مع رسول له بزيّ الغلمان يسوق فرساً لابساً ثياباً رثّة راكباً دابّة خاملة . وطاف بلاد الروم دون ان يعرفه احد . ولمّا وصل الى ارزنجان عرفهُ رجلٌ من السوقة فقال : هذا هو الملك هيتوم . فسمع الرسول والتفت الى الملك وهو يسحب الفرس ولطمه وشتمه وقال : يا جاهل هل اصبحت ههنا ملكاً واصبحوا يشبّهونك بالملوك ؟ وبقوله هذا دفع عنه الشبهة . وظلّ الملك بزيّ الصعاليك حتى وصل الى حدود الكرج ثم اعلن ذاته . واستغرق سفره هذه المرّة زهاء ثلاث سنوات ونصف سنة ثم عاد الى بلده .

وفي هذه السنة انتهى الحشد الكبير لدى المغول وارتحل هولاكو اخو مونككا خان عام ٦٥٠ للعرب (١٢٥٢ م) الى بلاد المغرب حيث كان الكيكتامي متولّياً في عهد كيوك (٤٩١) وأمر مونككا خان ان يسير معه من الجيوش الشرقيّة والغربيّة اثنان من كلّ عشرة . وصحبه اخوه الصغير سنتاي اغول ومن جانب باتو : بلغاي بن سبقان وقوتار اغول وقولي في عساكر كثيرة . ومن قِبَل جغاتاي تكودار حفيده . ومن جانب جيجكان بيكي اخت الخان بوقانيور في عسكر الاويرات . ومن ناحية الخطا الف بيت من صنّاع المنجنيقات والمشرفين على النفط . وسبق الجيوشَ الاميرُ كيدبوقا رئيس الحجّازين . وترك هولاكو ابنه جومغار بدلاً منه في خدمة مونككا خان مع امّه الملكة الكبيرة وقد مات هذا الصبي في الطريق وهو قادم الى زيارة ابيه . ثم استصحب هولاكو ابنه الكبير اباقا وابنه الآخر اشموط امّا دوقوز خاتون الملكة المؤمنة المسيحيّة الحقيقيّة فقد زُفّت اليه كعادة الملوك وسافرت معه . وارتفع بها شأن المسيحيّين في كل الارض . وظلوا في طريقهم الى السنة ٦٥٣ للعرب (١٢٥٥ م) حتى بلغوا بلاد العجم .

وفي تموز هذه السنة باغت مقدمة جيش التتر وعلى رأسه يساور الذي كان قد وافى اليها منذ ثماني سنوات فغزا القرى والدساكر واحرق البيوت والبيادر وقتل كلّ من كان في طريقه . وحلّ الجيش في جهة المدينة الشمالية . وسار بعض التتر الى جوباس (١٩٢) وقصدوا دير مقرونا وطلبوا من الرهبان ذهباً وطعاماً وشراباً . فرفضوا طلبهم لـو. الحظّ ظانّين انهم يتركونهم ويرحلون. غير ان اولئك التتر انقلبوا فاحضروا جنوداً كثيرين وعادوا فتوسّلوا الى الرهبان ليعطوهم شيئاً فأبوا فناوشهم التتر واضرموا في برج الدير ناراً اتّصلت باحمال صوف وشمع وزيت كانت هناك فاشتعلت كلها واحرقت جميع الرهبان شيوخاً وشبّاناً . والتهمت معهم نحو ثلاثمائة من الرجال والنساء .

وفي تلك السنة ارتقى كاتب هذا التاريخ الى كرسي اسقفيّة جوباس وحضر في دير مار برصوما سيامة البطريرك ديونيسيوس عنجور . وكان في دير مقرونا المذكور الراهب فرج الدومنيني وقوما اللوزاني . ففرج رمى بنفسه من البرج ولم يؤذه التتر لكنه مات بعد قليل اما قوما فاحترق بالنار . وكان اهرون الشيخ الطبيب والد المؤرخ في قرية مرجا بالبيدر مع برصوما ابنه الصغير فلمّا انقضّ التتر لم يَرَ ان ينهزم الى دير مقرونا المذكور مع اهالي القرية بل توجّه الى جهة اخرى من الجبل واختفى في مغارة حصينة تطلّ على سواحل الفرات وظلّ مع ابنه هناك اربعين يوماً حتى انكشف التتر . وقد غرق بغلٌ واحد في النهر واقام سائر المنهزمين في برعاما وكانوا ينصرفون ليلاً ليُعدّوا القوت لهم ولدوابّهم .

وفي السنة ٦٤٩ للعرب (١٢٥١ م) احتلّ بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل جزيرة فردو . ذلك ان الملك المظفّر صاحبها المتسلسل من اولاد اتابك زنكي لمّا رأى بدر الدين المذكور يتقوّى ويتشدّد ويأمر وينهي أراد ان يتحبّب اليه فخطب ابنته لابنه (١٩٣) الملك المسعود . لكنّ الشيطان اغواه فحقد عليها وأبغضها . وجعل ابوه ينصح له ليكتم حقده فلم ينتصح . واخذت امرأته تشكو امرها الى ابيها فارسل واستدعاها اليه . وما تمّ ان مات المظفّر وخلفه ابنه الملك المسعود وطفق حموه يضايقه في الطلب حتى ارسل يقول له : أريد الجوهرة الفلانيّة التي في قلادة المرأة الفلانية . وأريد كذا وكذا من فلانة .

وكان صهره يبعث اليه بما يطلبه . واخيراً كتب اليه بدر الدين يقول : انك قد بمتني الجزيرة لما كنا في نصيبين . فاجابه المسعود : اني راضٍ بكل ما تطلب ما عدا التخلي عن ولايتي . عند ذلك حشد بدر الدين الجيوش وزحف الى الجزيرة يوم الثلاثا ٢٤ جمادى الآخرة اعني نيسان من السنة المذكورة وحاصرها . فارسل المسعود يطلب الامان ووعده بدر الدين بقلعة قارح ليقيم فيها مع عياله ونسائه . فرضي المسعود واطلق سعيد الحرّاس والجنود . لكن بدر الدين وجه حاجبه فقبض على المسعود واوثقه واركبه سفينة يوهمه انه يمضي به الى الموصل . ثم أسرّ الى الملّاحين والعبيد الذين ساروا معه ان يغرقوه في دجلة وينهزموا الى سورية ويذيعوا بانه هو الذي رمى بنفسه واختنق وانهم انما اقبلوا الى سورية خوفاً من ان يهلكهم مولاهم بدر الدين مدّعياً بانهم هم الذين أغرقوه . وقد امتثلوا الامر تماماً واغرقوا المسعود وساروا الى سورية واقاموا سنة كاملة ثم عادوا الى الموصل . واحتلّ بدر الدين الجزيرة يوم الجمعة ١١ رجب من السنة المرقومة . وهذه مدينة الجزيرة ليست من ابنية اليونان لكنّ بني عُمر المعدّيين هم الذين بنوها (٤٩٤) واطلقوا عليها اسمهم فدُعيت (جزيرة ابن عُمر) .

وفي تلك الحقبة كان بعض التجار يعبرون نهر جيحون الكبير في العجم وكان معهم رجل فقير لابس ثياباً رثّة وهو يقول للملّاحين اني انا هو السلطان جلال الدين خوارزمشاه وقد اذاعوا عني ان الاكراد فتكوا بي في جبال آمد . والحقيقة ان حافظ امتعتي هو الذي قُتل . امّا انا فما برحتُ منذ بضع سنوات اطوف في البلاد متنكّراً متنزّهاً . فخاف اولئك الملّاحون وقبضوا عليه ومضوا به الى زعماء المغول القريبين منهم فنكّلوا به تنكيلاً شديداً حتى مات وهو يقول بانه هو هو السلطان خوارزمشاه .

وفي السنة ١٥٦٥ لليونان (١٢٥٤ م) جعل وفود التتر يتقاطرون طالبين عز الدين سلطان تونية ليذهب بذاته الى زيارة الخان الكبير والّا فان جنودهم يزحفون الى بلده ويخربونه . عند ذلك اضطرّه الخاصة والعامة ان يلبي الطلب . فسار الى سيسطية وهو منهمكٌ في الخلاعة والفجور والدعارة اذ كان كلما سمع عن امرأة او بنتٍ او ابنٍ من الاعيان او من العامة اقتاده قسراً وارتكب المنكر . ذلك ما حمل العظماء على ان يكرهوه ويبغضوه . وحاولوا ان يملكوا

عليهم ركن الدين اخاه الوسطاني بدلاً منه . فخاف عزّ الدين وانقلب عائدًا الى قونية وأعدّ علاء الدين اخاه الصغير وبعثه الى الخان وحمّله رسالةً يقول فيها : هذا ارسل اليكم اخي علاء الدين الصغير وهو سلطان نظيري . اما انا فبما ان جلال الدين قراطاي حاجبي قد مات وثار عليّ العدو من بلاد المغرب فقد تعذّر عليّ القدوم بذاتي ولكني سآتي في فرصة اخرى . هكذا ذهب الاخ الصغير وبعض العظماء معه لكن هولاكو غدروا به في الطريق واجهزوا عليه . ولبث عز الدين وركن الدين في قونية . على ان عزّ الدين لمّا بلغه خبر موت اخيه حاول ان يفتك باخيه الثاني ويستبدّ بالملك وحده . فشعر الاقطاب بذلك وهزموه من وجهه . قيل (٤٩٥) انهم ألبسوه قميصاً قذرًا لبعض غلمان الطبّاخين ووضعوا على رأسه طَبَق طعام واخرجوه من البلاط ماء واركبوه فرساً وأوصلوه الى قيسارية في ليلة وضحاها . وأجلسوه على التخت الملكيّ واجتمع اليه اغلب الجيش . ومضى بهم ركن الدين ليحارب اخاه عزّ الدين فبرز اليه عزّ الدين وكسره ثانية واعتقله وحبسه في قلعة دوالو .

وفي السنة ١٥٦٦ اليونان وهي السنة ٦٥٣ للعرب (١٢٥٥م) قُتل علاء الدين إمام الاسحيليين في قلعة شيركوه اعني جبل الأسد وخلفه ابنه ركن الدين فارسل اليه هولاكو يقول : ان كانت نيّتك سليمة وان كنتَ تحبّ المصالحة والسلام لزمك ان تقوّض قلاعك كلّها وتتوجّه الينا بنفسك والّا فتأهّب للحرب . فارسل ركن الدين وأخرب حالاً خمس قلاع خالية من الذخائر ولا يتيسّر لها ان تقاوم التتر . وارسل الجواب الى هولاكو يقول : باشرتُ انجاز امرك وساقوّض سائر القلاع شيئاً فشيئاً . غير ان هولاكو عرف انه انّما يحاول التسويف والمماطلة فارسل كيدبوقا الى قلعة شهدير فحاصرها يومَين واحتلّها واحتلّ معها ثلاث قلاع غيرها مجاورة لها . ثم ان ركن الدين استدعى فتى مسكيناً ألبسه ثوباً ملكيًّا وسيّره الى هولاكو رهينةً . فعرف هولاكو الحيلة ولكنّه كتم الامر وردّ الفتى مكرّماً وقال لركن الدين اني قد طلبتك انت ولم اطلب ابنك . فارسل اليه ركن الدين أخاه شيرانشاه في ثلاثمائة فارس . فقبض هولاكو على الثلاثمائة وأرسلهم الى قزوين وردّ اليه شيرانشاه يقول اني اياك طلبتُ . وليلة عيد الميلاد الخلاصيّ عوّل ركن الدين على القدوم فاستلّ عبيده السكاكين

وقالوا له: اذا ذهبتَ قتلناك . فارسل يخبر هولاكو بالامر فكتب اليه هولاكو : ان يتوقّى (٤٩٦) ويحتال في الذهاب اليه حرصاً على حياته . وأنه سيُهلك جميع الاسمعيليين بحدّ السيف .

امتثل ركن الدين امر هولاكو وانحدر ليلاً من القلعة وسار اليه مع بنيه واهله فرحّب به ملك الملوك وارسله الى قزوين مكرّماً . اما الفرسان الثلاثمائة فقد أجهز عليهم المغول خفيةً . واحتلوا كذلك القلعة التي تركها ركن الدين وهي قلعة ميموندور وأخربوها وتسلّطوا عليها قلعة آلاموت وقلعة جردكوه الشاهقة كانتا في الجوّ والقلاع الحصينة المحدقة بها . فقد احتلّها التتر باسرها وقوّضوها واخربوها وفتكوا بكلّ من كان فيها .

وفي تلك الفتوحات المباركة قد اشفق الله تعالى على جميع الملوك العرب والمسيحيّين الذين كانوا يخافون الاسمعيليّين حاملي السكاكين وسفاكي الدماء خوفاً شديداً . ولمّا استيقن ركن الدين عطف هولاكو عليه قال له بثقةٍ تامّة : اني انّما اعيش هذه الايّام من فضلك وكرمك . فارجو ان تسمح لي لاقضيها في هناءٍ ولذّة . فأمر هولاكو وكلاء بيت المال ان يمدّوه بذهبٍ وفضّةٍ وافرة . واخذ ركن الدين يأكل ويشرب مترفها وكلف بفتاةٍ مغوليّة فأمر هولاكو ان تُرَفّ اليه . ولمّا كان يوماً يعاقر الخمرة قال لاحد المطربين فتغنّى بابياتٍ فارسيّة هذا تعريبها :

اقبلتُ اليك يا ملك الملوك إقبال المريض الى الطبيب .

وجئتُ الى لقائك لاحصل على الحياة .

ما جئت الى أرضك لاتّجر بل لاقطف ثمار العافية من بذارك .

استحسن هولاكو هذه الابيات وازداد عطفه عليه . وبعد هذا استرخصه ركن الدين في الذهاب ليزور (٤٩٧) مونكّكا خان . فبعث معه سفيراً مغولياً حدثت بينهما خصومة حقد عليه السفير بسببها . وما ان وصل الى معسكر الخان حتى اخذ السفير يفتري عليه فامر الخان بقتله . واصدر الاوامر بقتل جميع الذكور والاناث الاسمعيليّين على بكرة ابيهم حيثما كانوا .

وفي تلك السنة خرج بايجو نوين قائد عسكر التتر الى ارضروم فأرسل سفيراً الى السلطان عزّ الدين في شهر آب وسأله مكاناً يشتي فيه لان هولاكو توخّى

ان يشتي في بلد موجان حيث كان يشتي هو . وقد وصل مع بايجو نوين الملك هيتوم عائدًا من عبودية الخان الاكبر وبلغ الى وطنه يوم الجمعة اوّل ايلول وابتهج المسيحيّون كلّ الابتهاج . غير ان السلطان رفض طلب بايجو نوين لانه عرف ان مولاه قد طرده واستبدله بقائد آخر اكبر منه . ولهذا السبب تأهّب لمحاربته . فزحف بايجو ولاقاه السلطان عزّ الدين بجانب فندق السلطان ما بين قونية واقسرا . فانكسر عزّ الدين وانهزم الى بلاده الداخلية بحدود نيقية . وكان قائد جيشه يوتاش بفلار بك وقد قتل في تلك المعركة . ثم ان بايجو نوين أطلق ركن الدين من الحبس وولّاه بلاد الروم عام ١٥٦٧ لليونان (١٢٥٦ م) . وعند ذلك وجّه عزّ الدين سفيرًا الى هولاكو يشتكي على بايجو لكونه سلبه مملكة آبائه وإرثهم . فوجّه هولاكو أمرًا ملكيًّا بان يقتسم الاخوان البلاد . ولمّا دخلت السنة ١٥٦٨ لليونان (١٢٥٧ م) ظهر عزّ الدين واقبل الى قونية . وسار ركن الدين مع بايجو الى البلاد الداخلية في مشتى بيتونية على ساحل البحر . وكان عزّ الدين يخاف (٤٦٨) بايجو ولذلك جعل يجيّش الجيوش وارسل طغرل بلابا الى اطراف ملطية ليحشد له الجنود من الاكراد والمعدنيّين والتركمان . اما ركن الدين فانطلق الى حصن زياد واستحضر من المشرق زعيمين كرديّين : احدهما شرف الدين احمد بن بلاس وولّاه ملطية وثانيهما شرف الدين محمد بن الشيخ عدي وولّاه حصن زياد . غير ان الملطيّين لم يقبلوا ابن بلاس لانهم كانوا مخالفين لركن الدين ولذا جعل يحارب اهل المدينة ويضايقهم مدّة الشتاء كلّها حتى اشتدّ الجوع وصار قفيز الحنطة بمائة وعشرين سلطانيًّا . وما عتم ان ثار عليه الملطيّون واجبروا على ثلاثمائة من رجاله . فانهزم الى بلد قلودية واحرق دير ماديق ودير مار اسيا يوم احد الثمانين اوّل نيسان واتلف الضواحي وعاث كذلك في بلد جوباس . ثم انتقل الى آمد وهناك لقيه صاحب ميافرقين وفتك به .

اما ابن الشيخ عدي فانه بعد ما ضايق اهالي حصن زياد انتقل مع نسائه الى اطراف قاح يريد ان يساعد السلطان عزّ الدين فادركه جيش انكورك نوين وأجهز عليه . ولمّا سمع السلطان بما صار اليه الاكراد الذين اقبلوا ليساعدوه وجّه قائدًا الى ملطية اسمه علي بهادور وكان قصير القامة مُهملًا لكنه بَطَلٌ منجّذ بالحرب . فلمّا وصل رحّب به الملطيّون فأحسن اليهم وعاملهم خير معاملة .

وانفتحت الطرق وجعل الاهالي يثارون الحنطة من كلّ مكان ، وكانت الجبال يومئذٍ والتلال (١٩٩) والاودية المجاورة لملطية ممتلئة بالتركمان الاعجزية يغزون في كلّ مكان . وقد نهبوا من قرية بضواحي حصن منصور سبعة آلاف من البقر والحمير وخمسة واربعين الفاً من الخراف والماعز ، واستحوذوا على دير ماديق . وعلى دير مار اسيا ودير مار دميط واستلبوا منها اشياء كثيرة . ثم زحف علي بهادور وطردهم من هذه الانحاء . وقبض على زعيمهم شوقي بك واعتقله في قلعة المنشار . وظلّ اهالي ملطية مطمأنين زماناً حتى برز بايجو مع جنوده من بلاد بيتونية الداخلية في ايّام نيسان وامتدّوا في اطراف غلاطية وقبدوقية وجعلوا يحاربون القلاع كيما يخضع اصحابها لركن الدين . ونزلوا على ابلستين وفتكوا بجميع اهاليها البالغين سبعة آلاف . وسبوا الفتيان والفتيات . وقدموا الى ملطية يوم السبت نصف ايلول . وهرب بهادور الى كاختة . اما بايجو فاستحلف الملطيين ليكونوا مع ركن الدين وأخذ منهم كميّة من الدنانير وولّى عليهم فخرَ الدين اياس احدَ مماليك ركن الدين وتوجّه الى حصن زياد . وقد ورده الامر من هولاكو بان ينحدر سريعاً الى بغداد .

(يتبع)